

الوافي في الوفيات

وقد توالى الفتوح غرباً ويمناً وشاماً وصارت البلاد والشهر بل الدهر حرماً حرماً وأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلافة لم يخروا عليها صماً وعمياناً والبدعة خاشعة والجمعة جامعة والمذلة في شيع الضلال شايعة ذلك بأنهم اتخذوا عباداً من دونه أولياء وسموا أعداء الأصفياء وتقطعوا أمرهم شيعاً وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعاً وكذبوا بالنار فجعلت لهم نار الحتوف ونثرت أقلام الطيبى حروف رؤوسهم نثر الأقلام للحروف ومزقوا كل ممزقٍ وأخذ منهم بكل مخنقٍ وقطع دابرهم ووعظ آئبهم غابرهم ورغمت أنوفهم ومنابرهم صدقاً وعدلاً وليس السيف عن سواهم من الفرنج بصائم ولا الليل عن السير إليهم بنائم ولا خفاء عن المجلس الصاحبى أن من شد عقد خلافة وحل عقد خلاف وقام بدولةٍ وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاق والأسلاف فإنه مفتقرٌ إلى أن يشكر ما نصح ويقلد ما فتح ويبلغ ما اقترح ويقدم حقه ولا يطرح ويقرب مكانه وإن نزع وتأتبه التشريقات الشريفة . ويقال : إن المعز لما أتى إلى القاهرة قال لديوان الإنشاء : أكتبوا لنا ألقاباً تصلح لنا أن نتلقب بها . فكتبوا لهم ألقاباً آخر ما كان فيه لقب العاضد فقدر الله تعالى أن آخر من ملك منهم كان لقبه العاضد وهذا فالٌ عجيب . وقد تقدم في ترجمة الخيوشاني فصل يتعلق بالعاضد . وكان الفقيه عمارة اليمنى قد رثى أهل القصر بهذه القصيدة اللامية وهي :
من البسيط .

رمى يا دهر كف المجد بالشلل ... وجيده بعد حسن الحلبي بالعتل .
سعت في منهج الرأي العثور فإن ... قدرت من عثرات الدهر فاستقل .
جدعت ما رنك الأقبى فأنفك لا ... ينفك ما بين أمر الشين والخجل .
هدمت قاعدة المعروف عن عجلٍ ... سقيت مهلاً أما تمشي على مهل .
لهفي ولهف بني الأيام قاطبةً ... على فجيعتها في أكرم الدول .
قدمت مصراً فأولتني خلائفها ... من المكارم ما أربى على الأمل .
قومٌ عرفتم بهم كسب الألوف ومن ... تمامها أنها جاءت ولم أسل .
وكننت من وزراء الدست حين سما ... رأس الحصان يهاديه على الكفل .
ونلت من عظماء الجيش تكريمةً ... وحلةً حرست من عارض الحلل .
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمةٍ ... لك الملامة إن قصرت في عدلي .
بأزر ساحة القصرين وابتك معي ... عليهما لا على صفين والجمال .
ماذا ترى كانت الأفرنجٍ فاعلةً ... في نسل آل أمير المؤمنين علي .

هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبي والنفل .
وقد حصلت عليهما واسم جدهم ... محمدٍ وأبيكم غير منتقل .
مررت بالقصر والأركان خاليةٌ ... من الوفود وكان قبلة القبيل .
فملت عنها بوجهي خرف منتقدٍ ... من الأعادي ووجه الود لم يمل .
أسبلت من أسفٍ دمعي غداة خلت ... رحابكم وغدت مهجورة السبل .
أبكي على ما تراءت من مكارمكم ... حال الزمان عليكم وهي لم تحل .
دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أحوش من رسمٍ ومن طلل .
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل .
وكسوة الناس في الفصلين قد درست ... ورث منها جديدٌ عنهم وبلي .
وموسمٌ كان في يوم الخليج لكم ... يأتي تجملكم فيه على الجمل .
وأول العلم والعيدين كم لكم ... فيهن من وبل وجودٍ ليس بالوشل .
والأرض تهتز في عيد الغدير كما ... يهتز ما بين قصريكم من الأسل .
والخيل تعرض في وشيٍ وفي شيةٍ ... مثل العرائس في حليٍ وفي حلل .
وما حملتم قرى الأضياف من سعة إلى ال ... أطباق إلا على الأكتاف والعجل